

تجارة القوافل عبر الصحراء بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال نهاية العصر الوسيط

د / قدوري عبد الرحمن.

قسم العلوم الإنسانية، جامعة سعيدة.

تاريخ النشر: 01 أبريل 2019.	تاريخ القبول: 02 ماي 2018	تاريخ الإرسال: 19 مارس 2018
<p>ملخص:</p> <p>كان للمغاربة دور كبير في نقل التجارة الخارجية للسودان الغربي، وعلى الرغم من أن ثمة أحوالاً أخرى مثلت صعوبات في طريق التبادل التجاري بين التجار المغاربة في السودان الغربي والتجار الأجانب في كل من عصري المرابطين والموحدين، وهي الحروب مع نصارى الأندلس فقد كانت التجارة بينهم لا تزدهر إلا في سنوات الهدنة التي كثيراً ما كانت تخترق، فتقل السلع الداخلة إلى المغرب والسودان الغربي، أما فيما عدا ذلك فلم تتوقف حركة القوافل التي تحمل سلع السودان الغربي إلى المغرب عن السير، بفضل جهود حكام بلاد المغرب في توفير أسباب الأمن للتجارة مع السودان والمشرق وأوروبا.</p>		
<p>الكلمات المفتاحية: تجارة الصحراء، بلاد المغرب، السودان الغربي.</p>		
<p>Abstract</p> <p>Maghriban had a significant role in the transfer of foreign trade to Western Sudan and, although there are other factors which represented difficulties in the trade exchange between Maghriban and foreign traders in western Sudan in both ages of Almoravid and Almohad, these factors are the wars with the christians of «andalusia» therefore the trade would only thrive in years truce which was often broken, and leads to a lack of goods intering to Maghreb and Western Sudan, other than that the convoys carrying goods from western Sudan to Maghreb didn't stop it didn't stop , thanks to the efforts of the rulers of the Maghreb who provided security reasons to trade with Sudan, and the Orient And Europe.</p>		
<p>Key words: Trade in sub-Saharan Africa- The Islamic Maghreb- The Western Sudan.</p>		

تعددت الطرق والمسالك التجارية عبر الصحراء بين شمال إفريقيا وغربها ووسطها، حيث تعتبر العلاقات الاقتصادية أقوى الروابط في تاريخ الاتصال بين هاتين المنطقتين، وتعتبر الطرق أهم وسيلة لهذا الاتصال.

واشتهرت عدة طرق للقوافل، كانت تبدأ من مراكش وتلمسان وتونس وطرابلس ومصر متجهة ناحية الجنوب، فتجتاز الصحراء الكبرى وتصل إلى المراكز الرئيسية في غربي إفريقيا.

يتراوح عدد جمال القافلة الواحدة بين ألف وثلاثة آلاف جمل محملة بمختلف السلع، وتستغرق الرحلة في ذهابها وإيابها فترات طويلة قد تمتد إلى شهور عديدة، وعادة ما تبدأ القافلة المتجهة إلى سنغاي رحلتها في أوائل الشتاء تحسباً لاشتداد الحرارة في الصحراء في زمن الصيف¹. ولم تبق هذه الطرق ثابتة عبر القرون، فهناك ظروف سياسية وغيرها، عملت على تغيير القوافل لمسالكها من وقت لآخر، ولكن الاتجاهات عموماً بقيت ثابتة إذ أن بعض المراكز لم تفقد قيمتها لسبب أو لآخر، وإن من أهم مؤثرات ضعف الحركة التجارية أو قوتها مدى الضمانات الأمنية التي تتوفر للقوافل، وقد كان على القوافل أن تؤدي إتاوات عن حق مرورها أو دخولها إلى أسواق الأراضي السودانية، إضافة إلى حقوق مشابهة تؤدي في المراكز الشمالية². ومع أن نطاقاً صحراوياً مقفراً يفصل بين منطقة الشمال الإفريقي وبين السودان الغربي، إلا أن هذا الحاجز لم يقف جسراً يستحيل عبوره، إذ لعبت حركة التبادل التجاري والاتصال السكاني دوراً كبيراً في تواصل وتنمية العلاقات الحضارية والتبادل الاقتصادي، الأمر الذي أعطى الصحراء الكبرى أهمية قصوى في مسار تاريخ المناطق الواقعة شمالها وجنوبها. ولم تحجب الصحراء الكبرى، رغم وعورة مسالكها ودروبها هذا التواصل الحضاري، بل ظلت بمثابة البحر المحيط الذي يربط بين ساحلين، وكانت سفن الصحراء (الإبل) وسيلة الاتصال الهامة منذ القرون الميلادية الأولى وحتى القرن العشرين³.

ورغم قسوة العوامل الطبيعية فإن طرق القوافل عبر الصحراء الكبرى لعبت دوراً هاماً في نقل المؤثرات الحضارية إلى قلب القارة الإفريقية وإلى أقسامها الغربية، كما كانت أيضاً طرقاً سلكتها الهجرات المتتالية والمتبادلة بين شمال الصحراء وجنوبها نتيجة لعوامل متنوعة، وباتساع نطاق الهجرة والاستيطان قوي أثر العرب في حياة أهالي السودان الغربي، كما ترسخت المؤثرات العربية الإسلامية

نتيجة لاعتناق نسبة كبيرة منهم للدين الإسلامي، كما اتخذت مجموعات كبيرة منهم اللغة العربية وسيلة للتخاطب والتفاهم فضلاً عن أنها أصبحت لغة الثقافة والعلم، ومن أبرز هذه القوافل:

- الطريق الغربي ويمتد من سجلماسة إلى ولاته ثم إلى تمبكتو وجني وجاو.

- الطريق الذي يمتد في المنطقة التي اصطلح الباحثون على تسميتها "المغرب الأوسط" وهي الجزائر اليوم، ويمتد من تلمسان إلى توات إلى تمبكتو.⁴

- الطريق الذي يبدأ من ورقلة إلى جاو، ويتصل هذا الطريق ببعض الموانئ الجزائرية على ساحل البحر المتوسط ومنها بجاية وسكيكدة وغيرها.

- وهناك أيضاً الطريق الذي ينطلق من واحة الجريد بتونس وغالباً ما تمر قوافله بورقلة أو سوف أو غدامس.

- كذلك الطريق الذي يبدأ من طرابلس الغرب على الساحل الليبي ويمر بغدامس ويمر بفزان وينتهي إلى بورنو وجاو.

- وهناك أيضاً، طريق يبدأ من مصر ماراً بواحة سيوة وزويلة فتادمكة فجاو إلى تمبكتو.⁵

وقد أعطى الرحالة والجغرافيون أهمية كبرى لمعالجة موضوع طرق القوافل، فمنهم من قدر المسافات بالمراحل والأيام، ومنهم من قدرها بالأميال.

وكانت أهمية طرق القوافل العابرة للصحراء تتغير طبقاً لقيام الدول وانهارها، وانتقال مركز الثقل السياسي والاقتصادي، ففي عهد مملكة غانة كانت الطرق الغربية أكثر أهمية، وبنهارها وقيام مملكة مالي انحرفت هذه الطرق شرقاً، وبقيام مملكة صنغاي زاد انحراف هذه الطرق ناحية الشرق وأصبحت نهاية الطرق تمبكتو وجاو، وعقب سقوط مملكة سنغاي عام 1000هـ/1591م، قلت أهمية الطرق الغربية ونشطت الطرق الشرقية عند قيام ممالك الهوسا.⁶

ومن هنا يتضح أن بلاد السودان الغربي قد ربطت مع الشمال الإفريقي بشبكة من الطرق المختلفة والتي عبرت دروبها القوافل التجارية والهجرات البشرية المختلفة مما كان سبباً في تدفق المؤثرات العربية الإسلامية المختلفة صوب تلك البقاع.

2- المراكز التجارية :

نظراً للحركة التجارية المزدهرة التي انتظمت بين بلاد السودان الغربي وبين مناطق الوطن العربي، أقيمت العديد من المدن التجارية على جانبي الصحراء الكبرى، وبالذات في المناطق التي كانت تمر بها طرق القوافل التجارية الرئيسية العابرة للصحراء. وقد كانت هذه المدن بمثابة مراكز استقرار للتجار الذين يقومون بنقل وتوزيع المنتجات المتداولة بين الشمال الإفريقي وجنوب أوروبا والمشرق العربي وبين السودان الغربي، وقد شكلت هذه المراكز والمحطات التجارية شرياناً للمعاملات الاقتصادية بين المنطقتين وأماكن لامتزاج الأفكار تأثيراً وتأثراً، وهذه المراكز قسماً مراكز تقع على الجانب الشمالي للصحراء ومراكز على الجانب الجنوبي، وقد مر بنا ذكر بعضها مثل ولاته، تنبكت، تغازا، توات وجاو، ولهذا سنتعرض لمراكز أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها وهي "غدامس"، "تادمكة"، "سجلماسة" و"ورقلة" و"فزان".

غدامس: تقع غدامس عند التقاء الحدود الليبية مع كل من تونس والجزائر، واشتهرت كمركز تجاري هام، حيث أصبحت ملتقى الطرق التجارية للقوافل القادمة من مدن سواحل الشمال الإفريقي، ثم تتفرع منها عدة اتجاهات نحو بلاد السودان الأوسط والغربي. وإلى جانب خدمة القوافل اشتهرت غدامس أيضاً بصناعة الجلود، وقد وصفها الحسن الوزان بقوله: "...غدامس منطقة كبيرة مسكونة، حيث القصور العديدة، والقرى المأهولة، على بعد نحو ثلاثمائة ميل من البحر المتوسط، سكانها أغنياء، لهم بساتين نخل وأموال، لأنهم يتاجرون مع بلاد السودان، يدبرون شؤونهم بأنفسهم، ويؤدون خراجاً إلى الأعراب"⁷، وقد اشتهرت غدامس باتصالاتها المتعددة مع بلاد السودان الغربي، وقد كانت قوافلها التجارية تجوب بلاد السودان، وقد سافر ابن بطوطة صحبة أحد هذه القوافل⁸.

تادمكة: تحدث عنها البكري واصفاً: "... وتادمكة أشبه بلاد الدنيا بمكة، ومعنى تادمكة هبة مكة وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب، وهي أحسن بناءاً من مدينة غانة ومدينة كوكوا، وأهل تادمكة بربر مسلمون وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء"⁹.

يتضح من هذه الإشارات التاريخية الأهمية الكبرى التي كانت تتمتع بها تادمكة، وأن امتداد الهجرات العربية الإسلامية إليها كان منذ ما قبل القرن الحادي عشر الميلادي، وهو التاريخ الذي كتب فيه البكري مصنفه الكبير "المسالك والممالك"، وأنها ضمت خليطاً من العناصر الإفريقية والعرب المغاربة، فقد ذكر ابن حوقل أن ملوكها: "سودان ابيضت أبشارهم وألوانهم"¹⁰.

ويبدل هذا على اختلاط العناصر السكانية والإقبال على الاستقرار في تادمكة، وتحسن الوضع الاقتصادي والأمني فيها حتى صارت في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أحسن عمراناً وبناءً من غانة، ورغم أن ابن بطوطة لم يتعرض لتادمكة بعد خروجه إلى تكدا من كوكو ثم شمالاً نحو الصحراء الكبرى، ويبدو أن ذلك لم يكن لضعف أهمية تادمكة، وإنما لأن ابن بطوطة تلقى رسالة السلطان بفاس، فسارع لتلبية أوامره وقفل راجعاً ولم يكمل زيارته للمنطقة واستقصاء أخبارها ووصف أحوالها¹¹، وعموماً فقد ظلت تادمكة مركزاً تجارياً هاماً حتى أواخر القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي¹².

سجلماسة :تعد سجلماسة ثاني مدينة تشيد بالمغرب الإسلامي بعد القيروان وعاصمة أول دولة مغربية مستقلة عن الخلافة بالمشرق، والمتمثلة في إمارة بني مدرار الخارجية الصفرية، فقد أجمعت بعض المصادر التاريخية، أن سجلماسة بنيت سنة 140هـ/757م.¹³

وتعتبر سجلماسة أهم مركز شمالي في تجارة القوافل، فهو مركز انطلاق القوافل وتحركها إلى بلاد السودان الغربي حيث تسير إلى تغازة، ويصفها ابن حوقل بأنها كانت مركزاً تجارياً هاماً فيقول: "...ويقارب القيروان سجلماسة، في صحة الهواء، ومجاورة البيداء مع تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان، وسائر البلدان وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة.."14، فالتجارة هي مصدر الثروة الكبيرة التي تجمعت بالمدينة، وخاصة الثروة الذهبية التي كانت بأيدي سكانها وخاصة التجار.

ويقول ياقوت الحموي في معجم البلدان عن ذلك "وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب ولأهلها جرأة على دخولها"¹⁵، وقد حافظت سجلماسة على مكانتها التجارية لعدة قرون، وذكر المقدسي أيضاً بأنها "صحيحة الهواء كثيرة الثمار والأعشاب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان، كثيرة الغرائب وبها معادن الذهب والفضة"¹⁶.

كما تعتبر سجلماسة حلقة وصل بين المدن المغربية في الشمال وبين المدن السودانية في الجنوب، فهي مركز تجاري نشط فقد كانت على صلة تجارية مستمرة، وتعتبر ميناءً صحراويًا تتجمع فيه بضاعتان ثمينتان هما الذهب والرقيق، فنجد أن جميع القوافل التجارية القادمة من المراكز التجارية الشمالية والمتجهة نحو بلاد السودان أو العائدة منها تمر بسجلماسة، فهي بذلك مركز حساس من مراكز التجارة الصحراوية.

ورقلة: تقع في صحراء الجزائر الآن، وصفها الحسن الوزان بأن بيوتها جميلة، فهي واحة واسعة ويكثر بها النخيل وتعتبر مركزاً تجارياً هاماً ونقطة اتصال حيث تربط المغرب الأوسط بالسودان الغربي، أما مظاهر الحياة فيها، كما وصفها الوزان فتزخر بكثرة الصناع، وكان سكانها على درجة من الغنى بسبب علاقتهم بمملكة أغادس، وقد يأتي إليها الباعة والتجار بمنتجاتهم لإبدالها بالسلع السودانية التي تأتي لها، حيث يستقبلون استقبالاً طيباً، وأهم سلعهم القمح واللحم والملح والسمن والأقمشة الصوفية والكتانية والأسلحة وغيرها.¹⁷

فزان : يصفها الوزان على أنها: "منطقة كبيرة تقوم فيها قصور ضخمة وقرى كبيرة، وكلها مأهولة بأناس أغنياء بالمال وبحدائق النخيل وهم واقعون فعلاً على تخوم أغادس وصحراء ليبيا التي تتاخم مصر..."¹⁸، وقد أكد الوزان اتصال فزان بالسودان الغربي، فهي مركز تجاري هام من مراكز التجارة والتي تقع عليه طرق القوافل التي كانت تذهب للسودان الغربي،¹⁹ فالتجارة فيها نشطة وعلاقتها طيبة، فكل منتوجات البلاد الشمالية الإفريقية بطرابلس وتونس ومصر الزراعية والصناعية التي كانت تشحن إلى الجنوب والقوافل التي كانت تحمل مصنوعات ومحصولات الجنوب إلى الشمال تمر كلها بفزان، وحتى طرق التجارة بين تنبكتو ومصر كانت تمر أيضاً بفزان .

ومن هنا يمكن القول أن فزان بفضل توسطها لطرق القوافل الآتية من الغرب إلى الشرق، ومن الشمال إلى الجنوب، قد لعبت دوراً نشطاً في الحركة الاقتصادية المناسبة من مملكة سنغاي وإليها، منذ مطلع القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي.

3- السلع التجارية:

أدى النشاط الاقتصادي إلى ازدهار المراكز التجارية وإلى توسع حركة تبادل السلع التجارية بين المنطقتين، كما تنوعت مصادر هذه السلع وأنواعها، ويمكن تصنيفها إلى سلع واردة إلى السودان الغربي، وسلع صادرة منه.

أ- السلع الواردة : وصلت إلى السودان الغربي أنواع متعددة من السلع بعضها من البحر الأبيض المتوسط وبعضها الآخر من الصحراء ومن أهم هذه السلع:

الملح: كان الملح يشكل مادة تجارية وذلك للحاجة الماسة إليه وقد أشار إلى ذلك الكثير من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين ومنهم ابن بطوطة الذي أشار إلى أهمية الملح بقوله: "...وبالملح يتصارف السودان كما

يتصارع بالذهب والفضة، يقطعونه قطعاً ويتبايعون به"²⁰، وكان الملح يستخرج من منجمي أوليل وتغازا للذين تحدث عنهما البكري بقوله: "...ومن غرائب تلك الصحراء معدن ملح بينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوماً تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونهما من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة... ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر بلاد السودان والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة ومعدن للملح آخر عند بني جدالة بموضع يسمى أوليل على شاطئ البحر."²¹ ويبدو أن الملح كان مادة ذات أهمية كبيرة لدى السودانيين، ولا تقل أهميته عن اهتمام العالم بالذهب في ذلك الوقت، وكان يحمل من الصحراء إلى مراكز التجارة الكبرى على طرق الصحراء الجنوبية حيث يوضع في الداخل²².

وبسبب المسافة التي يقطعها عبر الصحراء على ظهور الجمال وازدياد الطلب عليه من داخل السودان ارتفعت قيمته بصورة كبيرة، وقد اتفق الجغرافيون العرب على أن الملح كان السلعة الأولى التي يدفع السودانيون الكثير في سبيل الحصول عليها.²³ وكانت الممالك والمراكز التجارية على طرق الصحراء الجنوبية توليه اهتماماً كبيراً وتيسر كل السبل للحصول عليه.

النحاس: حرص أهالي السودان على الحصول على النحاس، الذي استخدموه في أغراض مختلفة، وقد حصلوا عليه من خلال مبادلاتهم مع التجار المغاربة العرب، وقد توفر معدن النحاس في كل من السوس وتادلي وتكدا. وتحدث عنه ابن بطوطة قائلاً: "ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عنه الأرض ويأتون به إلى البلد، فيسكبونه في دورهم"²⁴، كما تحدث عن استخدام النحاس كعملة تستعمل في البيع والشراء فقال "...فإذا سبكوه نحاساً أحمر، صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رفاق وبعضها غلاظ...، يشترون برقاقها اللحم والحطب، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح"²⁵، واستخدم النحاس أيضاً في الزينة كحلي وصنعوا منه الأقنعة والتمائيل.

الأقمشة والأصباغ: شغف أهل السودان باقتناء الأنواع المختلفة من الأقمشة والمنسوجات البديعة الصنع الواردة من الشمال الإفريقي والمشرق العربي وحوض البحر الأبيض المتوسط، رغم أنهم تعلموا صناعة النسيج وذلك بسبب توفر مادة القطن الذي استوردوا بذرتة من الشمال الإفريقي، لكن يبدو أن الكميات التي أنتجوها لم تكن تكفيهم مما دعاهم إلى استيراد هذه المنتجات عبر القوافل التجارية الوافدة على بلادهم، وقد وصف البكري أهالي تادمكة وملكهم بالقول: "...ويلبسون الثياب المصبغة

بالحمرة من القطة والفلولى وغير ذلك وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصاً أصفر وسراويل زرقاء²⁶. كما وصف ابن بطوطة ملابس أهل ولاته بأنها: "ثياب مصرية حسان"²⁷.

الكتب: كانت الكتب من أبرز السلع المتداولة ويجني منها التجار أرباحاً طائلة بسبب الإقبال الشديد لأهالي المنطقة على اقتنائها وقد كانت أسعارها مرتفعة وسوقها رائجة²⁸، وكانت الكتب ترد من المغرب ومصر والمشرق العربي. وقد عرف السودان الغربي معظم المؤلفات المعروفة آنذاك في الوطن العربي والعالم الإسلامي²⁹. ورغم انتشار حرفة الوراقين كتقليد لواقع الحال في المغرب ومصر وقيام السودانيين بوضع العديد من المؤلفات وفي شتى صنوف المعرفة³⁰، غير أن عملية استيراد الكتب والمتاجرة فيها لم تتوقف.

سلع أخرى: وصلت إلى السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى العديد من السلع الأخرى مثل: القمح الذي كان يزرع في بعض مناطق السودان الغربي ولكنه لا يكفي حاجة الاستهلاك، ومع أنه لم يكن الغذاء الرئيسي للسكان آنذاك، إلا أنه كان لا بد من سد النقص الذي عانى منه السكان، فلجأ التجار إلى استيراده من بعض أقاليم الوطن العربي. وقد أشار البكري إلى أن القوافل التجارية كانت تحمل القمح والزبيب والتمور إلى أودغشت³¹، وقد وصلت إلى المنطقة التمور وبعض أدوات الزينة مثل العطور والأصداق³² والاسورة والختم³³ والودع³⁴، والفخار والأدوات الخزفية الراقية الملونة والتحف المعدنية³⁵ والخيول³⁶.

ب- السلع الصادرة من السودان الغربي: من أهم السلع التجارية التي لعبت دوراً هاماً في تجارة الصحراء، والتي كانت تمثل الصادرات الرئيسية لممالك السودان الغربي ما يلي:

الذهب: معدن الذهب من أهم السلع المحلية التي اشتهر بها السودان الغربي، وكان وراء تنشيط حركة التبادل التجاري عبر الصحراء الكبرى منذ أيام مملكة غانا، بيد أن أهميته قد زادت، نتيجة للشهرة التي إكتسبتها مملكة مالي، على إثر حجة منسا موسى المشهورة إلى الأراضي المقدسة عام 1324م، والتي أنفق فيها ما حملة مائة جمل من الذهب الخالص، علماً بأن الجمل الواحد كان يحمل ثلاثة قناطير³⁷. وقد أدى ذلك إلى توافد التجار والعلماء الأجانب إلى السودان الغربي الذي برزت أهميته العالمية، وظل هو المصدر الرئيسي للذهب حتى اكتشاف الأمريكيتين³⁸. وكان ذهب السودان ينتج من مناجم "ونجاره" التي اشتهرت بتواجد معدن الذهب فيها وبكميات كبيرة، حيث تعتبر المنبع الرئيسي للذهب وسميت بأرض الذهب.

وتحدث الوزان عن وفرة الذهب والثراء الكبير الذي ظهر به ملوك السودان الغربي بقوله: "...ويملك الملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية. ورغم أن مناجم الذهب كانت تقع في الأجزاء الجنوبية من بلاد السودان الغربي، والتي كانت في أحيان كثيرة خارج سيطرة الممالك الإسلامية في السودان الغربي، غير أن هذه الممالك كانت تسيطر على الطرق المؤدية إلى مناطق الذهب، فقد سيطرت مملكة مالي ثم مملكة سنغاي على هذه الطرق وأقامت علاقات تجارية مع الشمال الإفريقي. وفي أواخر القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي رأى الأشراف السعديون في المغرب الأقصى أن الظروف مواتية للسيطرة على مناطق الذهب والطرق المؤدية إليه، وذلك بسبب التفكك والاضطرابات التي كانت تعيشها مملكة سنغاي، وبالرغم من النجاح العسكري الذي أحرزه المنصور السعدي فإن عائدته من الذهب كان ضئيلاً، وبانتهاء سنغاي عام 1000هـ/1591م، انتهى عصر الذهب عبر الصحراء³⁹، وذلك لإخفاق السعديين في استغلال مناجمه بالصورة المطلوبة، ثم إن المنطقة سرعان ما وقعت تحت نفوذ الاستعمار الأوروبي.

والخلاصة أن الذهب والمتاجرة فيه قد لعبت دوراً كبيراً في نمو العلاقات بين الشمال الإفريقي والشرق العربي وبين السودان الغربي لعدة قرون، وساعدت على ازدياد الاتصال بين شعوبها وانتشار الإسلام والحضارة العربية في السودان الغربي.

الرقيق: كان الرقيق يمثل أحد السلع التجارية الهامة في العالم منذ أقدم العصور، وكانت بلاد السودان الغربي أحد مصادر الرقيق الوارد إلى شمال إفريقيا ومناطق حوض البحر الأبيض المتوسط⁴⁰، وقد تصدرت تجارته وتصديره إلى الشمال والشرق اهتمام المغاربة من التجار المقيمين في بلاد السودان الغربي، نظراً لكثرة الإقبال على شرائه لما يدره عليهم من أموال⁴¹. ويلاحظ أن منطقة السودان الغربي كانت أكثر المناطق الإفريقية تعرضاً للاستنزاف على إثر تطور حركة الكشف الجغرافية واكتشاف الأمريكتين، والغريب أن المستشرقين الأوروبيين يلمزون العرب بتهمة تجارة الرقيق واستنزاف القدرات البشرية للقارة الإفريقية، في حين تاجر العرب كغيرهم في الرقيق تجارة عادية، لأسباب معلومة تتعلق بحاجتهم للرقيق لأسباب اجتماعية كخدم في البيوت، ولم يكن الرقيق الإفريقي فقط بل كان الرقيق الأوروبي هو المفضل للعمل في الجيوش، ومن ثم لم يرتبط الرق في العالم العربي باللون، كما كان الحال في أوروبا، حيث كان الرقيق مع مطلع العصور الحديثة أسود⁴².

ولا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنة تجارة الرقيق العربية طوال تاريخها بتجارة وقنص الرقيق من قبل دولة أوروبية واحدة مثل البرتغال أو بريطانيا أو فرنسا أو إسبانيا أو هولندا⁴³، ففي الحالة الأوروبية كان الطلب على الرقيق ضخماً وهائلاً⁴⁴، بحكم الحاجة لهم للعمل في الأمريكيتين، وهو ما جعل خمس سكان الولايات المتحدة الأمريكية اليوم من الأفارقة السود، كما تختلف تقديرات المؤرخين لأعداد الرقيق الذي نقله الأوروبيون من إفريقيا طوال الفترة الممتدة من الثلث الأول من القرن الخامس عشر الميلادي⁴⁵، وحتى إلغاء تجارة الرقيق في المستعمرات الإفريقية في أواخر القرن التاسع عشر بل وحتى مطلع القرن العشرين، حيث ذكر بعض الباحثين الأفارقة ومنهم الرئيس الغاني الأسبق الدكتور كوامي نكروما أن هذه الأعداد تصل إلى مائة مليون نسمة⁴⁶، بينما لا تتكرر هذه الظاهرة في العالم العربي، رغم جواره الجغرافي لإفريقيا، وطول عهد التعامل الاقتصادي معها⁴⁷.

كذلك لم يكن الرق في العالم العربي حائلاً دون الرقي والتقدم الاجتماعي للرقيق، فالرقيق صاروا حكاماً وسلاطين، مثلما كان حال كافور، وسلاطين الدولة المملوكية في مصر من بعده، بينما كان الرقيق مطحوناً لا حقوق له في الحضارة الأوروبية، وكفلت الشريعة الإسلامية عتق وتحرير الرقيق كمبدأ، وحسن معاملتهم كسلوك ديني. أما الحضارة الغربية فلم تكفل هذه الحقوق إلا متأخراً⁴⁸، ولازالت بقايا العصر العبودي كامنة في بنية هذه الحضارة من خلال الممارسات العنصرية القائمة على أساس التفرقة بسبب اللون والعقيدة والانتماء الحضاري.

سلع أخرى: إلى جانب تصدير الذهب والرقيق، ساهم السودان الغربي أيضاً بتصدير عدد من السلع الأخرى، التي اعتمدت عليها تجارة الصحراء مثل الدخن، وريش النعام والشب والقطن والكولا والعاج والجلود والفول السوداني والعتبر وغيرها⁴⁹.

خاتمة

شكلت مسالك القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى جسور تلاقح حضاري عميق الأثر بين الشعوب الإفريقية شمال الصحراء وجنوبها، ونسجت بين هذين الجزئين عرى اقتصادية واجتماعية وثقافية وثيقة على مر الزمن، ونشطت تيارات التبادل الحضاري عبر الصحراء بشكل لم يسبق له مثيل في الفترة الممتدة من القرن 8 إلى القرن 16م، وتعددت المحاور التجارية وعرفت فترات ازدهار وانحطاط تبعاً للظروف الطبيعية والاقتصادية والسياسية والأمنية في المنطقة.

- 1- بوعزيز يحي، "طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر" تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، بغداد المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1984م، ص 131.
- جميلة التكيثك، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493-1528م، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. ليبيا، 1998، 114-115.2.
- أمطير سعد غيث، التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي، دار الرواد، بيروت، ب ت ن، ص 114.3.
- عبد القادر زبادية، مملكة صنغاي في عهد الأسكيين، 1493-1592، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر دون تاريخ النشر، ص 214.4.
- نفسه، ص 214.5.
- أمطير سعد غيث، مرجع سابق، ص 116-117.6.
- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، المملكة السعودية، 1979 ص 146.7.
- أبو عبد الله محمد ابن بطوطة، تحفة النظاري في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت: دار التراث، ب ت ن، ص 452.8.
- أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ب ت ن، ص 181.9.
- أبو القاسم محمد ابن حوقل، صورة الأرض، مطبعة بريل، لندن، 1938. ص 105.
- ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 454.
- أحمد إلياس حسين، الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، جامعة القاهرة: كلية الآداب، 1977م، ص 137.
- البكري، مصدر سابق، ص 142-150. المراكشي، بيان المغرب، مصدر سابق، ص 150-156.
- ابن حوقل، مصدر سابق، ص 99.
- ياقوت الحموي، مصدر سابق، ص 192.
- شمس الدين المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة لندن، 1990، ص 231.
- الوزان، مصدر سابق، ص 508.
- الوزان، المصدر السابق، ص 516-517.
- قاسم جمال زكريا، "كتاب وصف إفريقيا وتاريخها للحسن محمد الوزان"، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة مج 11، 1968م، ص 292.
- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 441.
- البكري، مصدر سابق، ص 171.
- أمطير سعد غيث، مرجع سابق، ص 136. الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999، ص 324.
- جميلة التكيثك، مرجع سابق، ص 137.
- ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 453.
- ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 454.
- البكري، مصدر سابق، ص 181.
- ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 442.
- الحسن الوزان، مصدر سابق، ص 541.
- أمطير سعد غيث، مرجع سابق، ص 140.

- 30 - جميلة التكيك، مرجع سابق، ص 139. محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مكتبة الإسكندرية، 2005، ص 450.
- 31 - البكري، المصدر السابق، ص 158.
- 32 - أبي عبد الله محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة لندن 1863، ص 66.
- 33 - زكريا بن محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، مكتبة مشكاة، ب ت م ن، ص 19.
- 34 - البكري، المصدر السابق، ص 179.
- 35 - السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير في العصر الإسلامي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة. 1966. ص 573.
- 36 - أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج 5، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1983، ص 287.
- 37 - ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ج 5، ص 932.
- 38 - جميلة التكيك، مرجع سابق، ص 134.
- 39 - زيادية، مرجع سابق، ص 53.
- 40 - بنمليح عبد الإله، الاسترقاق في الغرب الإسلامي بين الحرب والتجارة، صفحات متفرقة.
- 41 - نفسه ص 48.
- 42 - شوقي الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة: مكتبة الأنجلومصرية، 1977، ص 128-130.
- جمال حمدان، إستراتيجية الاستعمار والتحرير، القاهرة 1968 ص 104.⁴³
- "الرق بإفريقيا" مجلة البحوث التاريخية العدد 2، ليبيا، 1986. ص 15.⁴⁴
- 45 - شوقي الجمل وعبد الله إبراهيم، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، الرياض: دار الزهراء، الطبعة الثانية 2002. ص 51.
- دونالد ويدنر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، القاهرة: مكتبة الوعي العربي، 1962. ص 63-70.
- 46 - سيد فليفل، الخلفية التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية عبر الصحراء الكبرى، ندوة العلاقات العربية الإفريقية، طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية، 1999. ص 61.
- 47 - نفسه ص 63.
- 48 - شوقي الجمل وعبد الله إبراهيم، مرجع سابق ص 53-54.
- 49 - الهادي الدالي، مرجع سابق 322-323. جوزيف كي زربو، تاريخ إفريقيا السوداء، القسم الثاني، ترجمة يوسف شلبي الشام، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1994. ص 634.